العناصر الاقتصادية والصناعية

في موقف ايطاليا الحربي

ما وراء أسباب الحرب

وما بعد نهايتها

لنقولا الحداد

— ٥ —

أنا الشرق
أحتمي من العالم بنفسي
أستعيذ من العالم بالله
« أم ، أم ! » — الله ! الله !
ساعة ، ثم سكرة ، ثم آية
إلّه عينه سوداء (١) ، وشيطان عينه حمراء (٢) وملك عينه زرقاء (٣) ، يلبسون
الحياة ويعيدون إلى قديم الحياة
يرقصون في ظلال البنان والنخيل
ويحرقون البخور في هيكل أحلامي
ويرتلون ، وينشدون ، ويسبحون طالبين الإطلاق —
الإطلاق — إطلاق النفس والعقل والروح والجسد
يهتفون : « وآهم ، وآهم ، وآه » ويرقصون
يسبحون : « لبيك اللهمّ لبيك ! » ويسجدون
ثم في ساحات المدينة يخطبون ، وبالأبواق ينفرون
وعلى الثورة يحرضون
« لبيك اللهمّ لبيك ! »
« واذكروا الرجيم الأحيمي وإن كان حاملاً الجلاّ »
« ولا تخافوه وإن كان حاملاً مدفعاً رشاشاً »
« ولا تعاملوه وإن كانت بضاعته هبة »
« وآه ، وآه »
« لبيك اللهمّ لبيك »
ساعة من الابتهاج الروحي حول سرير الوطن يتلوها استسلام طويل تحت

(١) الدين (٢) السياسة (٣) الادب

عرش الله . ساعة ثم سكرة ثم أعجوبة

أبحث عن ذي العين السوداء ، وذي العين الحمراء ، وذي العين الزرقاء فلا أجدهم بل أسمع مايشبه أصواتهم في سراب الا « كرما » وفي قباقي القضاء والقدر

أنغاماً شجية وروحية تذيب الشهوات أشواقاً ، وتحوك للنفس أحجبة من خيوط الشمس وتفرش لها طريق الفرقدين أزاهر سرمدية ولكني ، وآسفاه ، استغرب هذه الأنغام اليوم ولا أستحبها ، وبالأخص عندما أطالع ، يا فتى الغرب صحافة بلادك الفضاحة التي تنبئني بما لطياراتك من العملة والاقتدار ، وكيف يمكنها ان تنسف أساطيلك البحرية وتبيدها

— ٦ —

أنا الشرق .

عندي فلسفات ، وعندي أديان

فمن يبيعني بها طيارات ؟

أخبها سفاهة مني أو تظنها تجديفاً ؟

قد يكون ذلك ، قد يكون

أنا نفسي أجهل اليوم صوت نفسي

صوت المجالس ، وصوت المنابر ، وصوت الصحافة

أجل أن لي أيضاً صحافة فضاحة يا فتى الغرب

ولي منابر لا ترضى بها آلهة أجدادك .

ولكنها منابر جديدة ، حريتها فتاة لا تعرف التمويه فلا تسمك ما بسرّ إن تجبها بما تريد

وهناك سرّ أهمسه في أذنك يا فتى الغرب

ليست الأديان والفلسفات ما تظنها

وليست ما تظنّ أني أظنها

فلا للعراقة هي ولا للتجارة ، ولا للسياسة ولا للتفلسف

إنما الأديان والفلسفات كصافي الماء
هي مصافي الحياة تصفيها في الأنل من بعض الحشرات والجراثيم -

— ٧ —

أنا الشرق
عندي تذوب الألوان كلها وتمتزج
فتمتزج نوراً بيضاء في بعض تحت ريشة الزمان
ألوان الغروب ، وألوان الفجر ، وألوان الليل البهية . لها كلها أفق واحد عندي ، وسماء واحدة
من الأخضر الناضر لذي الثمرة التي تزرع الثريا بذورها
الى الأصفر الفاقع لذي السر الذي يخلع العذر والعذار
الى الأحمر القاني الذي ارادته لا تذعن لبشر أو جن
الى الأزهر الباهر الجمال بسحر الساحرين بياضاً
هذه سلم من النفسيات لا تجدها عند سواي
وهناك الأرجوان فسماعة تجلس عن العرش ، والزعفران فجد هوت عروشه
والخلنجار يمارج ظلالاً حول عرش الأهواء والشهوات
والرماد المتناثر لما كان في سماء الفكر كوكباً نيراً
والأسود القاتم لمقر الحبر شاعر حمل عصا التأديب
والأبيض الناصع لمصرية تحمل غصناً من الزيتون
كما تمتزج في آفاق نفسي ، وتذوب في سماء آمالي وتستحيل خمراً في كأس أجل ، ان خير الأجيال الغابرة ، وخير الأجيال الحاضرة التي لم يحسن تصفيتها الزمان لملأ الكأس التي أشربها كل يوم
فتعيد إليّ روح النبوة القديم المجيد ، وتثير فيّ أم الذكرى ، وتجدد فيّ حب الجهاد

حكمة الطبيعة في الثمر

عندما ننظر الى الأثمار الغضة والخضرة والرياحة وغيرها كالتفاح والعنب والبرتقال والتين، نظن ان هذه الأثمار مقصودة بالذات في الطبيعة ، ونحسب على شدة غرورنا ، أنها انما خلقت لتكون غذاء للانسان . ولكنها في الواقع ليست مقصودة بالذات ، ولا الانسان غايتها الأخيرة بل ان الطبيعة ابتدعتها لغرضين ، الأول وقاية لبذور النبات حتى يتم نضجها . وثانياً ان تكون وسيلة لتفريق بذور النبات . فلون البذور والاثمار وشكلها وطرق انشقاق الثمرة كل ذلك مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأساليب نثر البذور وتفرقها . وأشهر هذه الوسائل مايلي : أولاً ان تكون وسيلة ميكانيكية في قاعدتها ، والغالب ان تكون البذور متعددة في ثمرة كثمرة التفاحيا او الخسة فيحوم الثمر عند نضج البذور وينفتل وينشق فتنثر البذور . والثانية ان يكون الماء وسيلة لتفريق البذور وأشهر مثل على ذلك جوز الهارجيل او جوز الهند الذي يطفو على الماء وهناك نبات آخر يدعى زنبق الماء لبذوره نسيج اسفنجي يحيط بها ويمكنها من أن تطفو مسافة غير قصيرة قبل أن تبتل وتغرق . والثالثة ان تكون الريح وسيلة لتفريق بذور النبات . وللرياح المرتبة الكبرى في ذلك فانها تحمل البذور للمدة من قبل الطبيعة لذلك على عاتقها وتعبر بها الأنهار والبحار . ومن المعلوم ان الرياح لا تستطيع ان تحمل الا الخفيف من البذور أو ما له شعر او زغب او أجنحة . ورابعاً ان يكون الحيوان وسيلة لتفريقها فمنها ما يكون حلو الطعم جميل المنظر فتأكله الطيور وتلقي بذوره بعيداً عن أمهاته . ومنها ما يعلق بطعام الحيوان ويدخن جوفه ويخرج معه براز فينمو حيث يقع . وقد روى داروين اثني عشر نوعاً من بزور النبات التي وقعت في بطونه من زرق الطيور مدة شهرين فقط نزرع بعضها فأفرخ هذه علاوة على ما يلصق بصوف الحيوانات وريش الطيور وقوائمها . وقد روي أن عالماً يدعى الأستاذ بيون وهو غير الفيلسوف اسحق نيوتن ، اصطاد حجلاً فوجد برجيه كرة من الوحل لاصقة بهما فحفظت هذه الكرة ثلاث سنوات ثم بلتت ووضعت تحت أداة زجاجي فنبا نيف وثلاثون نوعاً

وكذلك تبين ، ما في الطبيعة من المتانة والروائع . فاذا سرحنا النظر في الحدائق ورأينا الأشجار والأزهار والأثمار والبذور والهوام والحشرات والطيور ، وكان لنا من القواعد الأساسية في التاريخ الطبيعي عدة ، تهدينا بها الى ما وراء الظواهر ، وجمعنا الى اللذة النفسية والمتعة الفنية اللتين تختلجان في صدورنا عند ما نشاهد الألوان أو نشم العطور ، لذة عقلية مردها الى ما نجليه من الأسرار التي ركبها الله في الطبيعة من أدنى المكونات الى أعلاها

العناصر الاقتصادية والصناعية

في موقف ايطاليا الحربي

خرجت ايطاليا من الحرب العالمية الاولى في صف الدول الظافرة ، مع ان حلفاءها اضطروا ان يمشوا بقواتهم الى عمقها الشمالي ، ليمنعوا ما كادت تصاب به قواتها من الانهيار . وكان العقل يقتضي أن يردها ظافرها بين حلفائها دولة راضية ، ولو لم تبلغ تطلعها ، كما كانت تطمح اليه . ولكل مؤتمر الصلح ردها دولة ناقمة . فهي بحكم العامل الاول يجب ان تؤيد السياسة التي تمت بعد الحرب الكبرى . الا انها بحكم العامل الثاني ، كانت ترمي الى تنفيذ معاهدات الصلح بنية ان تتوزعها كلمة تطمح فيه وتصبح اليه . فلما بان قبيحة احدث الحرب ، ولم تشبع بالصلح

فلما تم النظام الجديد نيابة عن نظام التعمان السود ، وقد الدولة الكبرى ، اخذ يعبر السفير موسوليني عن رؤيا شاعر ايطالي مبدع ، أساساً لسياسة خارجية . كانت طبيعية تستند الى الحقائق ، لا ترتفع الا دون أحلام الشعراء . ذلك بأن دانونزيو الشاعر والسياسي الايطالي المشهور أنشأ قبل الحرب الفاشية مسرحية عنوانها « السفينة » صور فيها شاعر ايطاليا يحرض قومه على الحرب في نهضة من روعة في ان يرى ايطاليا سائدة طريق اتساع الامبراطورية الرومانية . وكانت كثيرة من الشعب حينئذ لا تزال ان الشاعر يجد البحر المتوسط ايطالياً بحيرة ايطالية ، أو « بحيرتنا » (ماري نوستروم) على ما كان يسميه ايام الامبراطورية الرومانية الاقدمين

هذه الصورة الشعرية اتخذها زعيم النظام الجديد في ايطاليا ... سياسة خارجية يقرر أن تتوافر لها العوامل الأساسية التي لا بد من توافرها ... لتحقيق هذه الحرب ، التي ليست رهن بديع ولا موضع أمره . فكانت النتيجة : سياسة التعاون مع الحرب ... وحملة الاعتداء على الحبشة ، ثم التدخل في اسبانيا ، ثم احتلال البانيا . وكان يعني قبل كل شيء تحييد أولاً وشريكه الأكبر ثانياً في الشمال ، أن يسيطر على منطقة الدانوب . وهذا مدين عليه باعتباره جمهورية النمسا وركناً من أركان هذه السيطرة ، لذلك قال في خطبة له في ميلانو في ١٦ اكتوبر سنة ١٩٣٤ بعد انقضاء شهرين ونصف شهر على مصرع مستشارها دولفوس بأيدي النازي النمسوي : « لقد دافعنا عن استقلال النمسا ، وسندافع عنه في المستقبل كذلك » . وفي السنة نفسها

قال في خطبة له : « سأوجه انظاركم الى أهداف تاريخية يجب أن يتجه اليها جيلنا والأجيال التي تليه . هذه الأهداف تحمل اسمين وهما : آسيا وأفريقيا »

ومن ثم أشار بمصره الى السيطرة التامة على البحر المتوسط . فغدت اسبانيا ، وآسيا الصغرى ومصر ، واليونان ، وشمال افريقيا ، والشرق الأدنى ، أهدافاً لسياسة الفاشيين الخارجية وخططهم الحربية . فكأن « النظام الجديد » في ايطاليا بهرته صورة الامبراطورية الرومانية في عهد الامبراطور أغسطس فأراد رجاله ان يبثوها بعد انقضاء ألفين من السنين

وعندما عزفت الجيوش الايطالية في روما ، في مايو سنة ١٩٣٦ ، بعد سقوط أديس أبابا خطب السنيور موسوليني في الجماهير من شرفة قصر البندقية فقال : « إن عقبان امبراطوريتنا الفتية محلقة مرة أخرى فوق آكام روما التاريخية » . وصنعت الخارطات ووزعت لتكوّن مثلاً حياً لما يريد ، فاذا هي تحتوي كل أوربا الوسطى والجنوبية الغربية ، والجنوبية الشرقية ، وآسيا الصغرى ، والشرق الأدنى ، ومصر ، وشمال أفريقية . وكان البحر المتوسط في هذه الخارطة بحيرة ايطالية في نطاق هذه الامبراطورية المترامية الأطراف .

***

هذه هي صورة الشاعر ، مترجمة في ألفاظ النثر ، ولكن هل ينهض موقع ايطاليا الجغرافي الحربي ، هل يرتفع اقتصادها القومي الى مستواها ؟

تمسكت الصورة خيال ايطاليا الفاشستية ، فخرجت سياستها عن حدود العقل والحكمة . انها تريد ان تضيء امبراطورية واسعة الجنبات ، مترامية الأطراف ، فراحت بالمناكب للاستيلاء على بلدان لا تنتج او يتعذر فيها الا انتاج . فالعمال والفلاحون الذين أمّوا الحبشة ، لتستخلصها الآمال بحسن احوال وحسن المآل ، لم يلبثوا طويلاً فيها ، حتى بدأوا يعودون ، وأمانر اخية مرتسمة على جباههم . كان عددهم فيها في مارس سنة ١٩٣٧ مائة وخمسة عشر ألفاً ، فلم يزد في مايو من السنة التالية (١٩٣٨) على ثمانية وعشرين ألفاً لا غير . أما في ليبيا ، فالارهاب الايطالي ، قد مزّق شمل السكان ، وأما أسبانيا ، فلها من تاريخها المجيد ، وتقاليدها العريقة ، وطبائع شعبها ما يمنع أقدم دولة مستعمرة في أوربا ، ان تصبح مستعمَرة لأحدث دول أوربا الكبيرة وأقواها ، مهما عاونه اصلة بين الدولتين وتحالف وتزوّق . وسائر بلدان البحر المتوسط على هذا القرار

والخطأ الأساسي في كل هذا المسعى ، هو التطلع الى انشاء امبراطورية عظيمة منتشرة على سواحل البحر المتوسط ، بغير ان يكون مركز هذه الامبراطورية ، متقلداً سيادة هذا البحر ، أو مالكاً زمام الناصر اللازمة لهذه السيادة

وفي سنة ١٩٣٨ أعربت ايطاليا ، اعراباً لاريب فيه ، عن أغراضها المباشرة في هذا البحر وهي مصر وشمال أفريقيا الفرنسي ، وقد طالبت بتونس وكورسيكا ، لأنهما تمكنانها من مواقع تتيح لها السيطرة التامة المطلقة على وسط هذا البحر فتمنع في حالة حرب الاتصال بين غربه وشرقه . أي ان ايطاليا ترمي الى قلب ميزان القوى في البحر المتوسط تلباً تاماً بخروج فرنسا وبريطانيا منه

إلاّ ان تحقيق غرض من هذا القبيل يقتضي « حرباً كلية » وان خوض ايطاليا حرباً من هذا القبيل ، يثير مسائل متعددة في مقدمتها مسألتان :

اولاً — ما هي الموارد المادية والاقتصادية والصناعية التي تعتمد عليها دولة تنوي ان تدخل حالتها تمثلاً خطيراً هذا مداه ، وهو شيء يقتضي قوة عظيمة في البر والبحر والجو ، وسر وراءها في المصانع والمتاجم والمزارع

ثانياً — ما تأثير سياسة خارجية من هذا القبيل ، وحرب كلية من هذا القبيل ، في حالة البلاد الداخلية

***

ان البحث الدقيق المتزن عن القوى ، يدل دلالة قاطعة على ان البون شاسع والفرق عظيم بين الاهداف المتوخاة ، والقدرة اللازمة لتحقيقها . وفي هذا قال غيره يجب ان نلتمس التفسير الصحيح لسلسلة النكبات التي أصيبت بها ايطاليا او الحوادث التي حدثت بها في العهد الأخير

ان القوة الحربية التي تتمتع بها دولة عظيمة في هذا العصر تنهض على ثلاثة أركان اقتصادية رئيسية : اولاً : صناعات ثقيلة وافية . ثانياً : موارد كاملة أو قريبة من الكاملة بحاجات الصناعة والحرب المتعددة . ثالثاً : الصناعات الهندسية . فلنلق نظرة عاجلة على كل منها على حدة :

اساس الصناعات الثقيلة ، الفحم ، والحديد الصلب ، والصلب . والفحم شأنه شأن الحديد في الارتفاع ، على الرغم من احلال البترول محله في السفن التجارية والحربية . وبركات تبدو في المواصلات الحديدية . فلا غنى عنهُ في صناعة الحديد ، ولا غنى عنهُ وقوداً في كثير من الصناعات الكبيرة . وقد أخذ شأنه يسمو في العهد الأخير ، لاستعماله واستعمال قطرانه في صنع الأعراض الكيميائية ، مثل البترول من الفحم ، والأصباغ من القطران وهكذا . وموارد ايطاليا من الفحم أقل من موارد أية دولة كبيرة أخرى في أوربا منه ، بل أقل من موارد أية دولة أوربية أخرى تنتج الفحم على الاطلاق . وانتاجها منهُ يبلغ مليون طن في السنة بينما بلغ انتاج بريطانيا سنة ١٩٣٨ ، ٢٣٢ مليون طن ، والمانيا ١٨٦ مليون طن ، والاتحاد

السوفيتي ١٣٠ مليون طن ، وفرنسا ٤٥ مليون طن . فانتاج ايطاليا اقل من نصف واحد في المئة من انتاج بريطانيا وأكثر قليلاً من نصف واحد في المئة من انتاج ألمانيا . واذا تحولنا الى الدول الاخرى وجدنا انتاج بولونيا يفوق انتاجها ثلاثين ضعفاً وكذلك انتاج بلجيكا . وانتاج تشيكوسلوفاكيا يفوق انتاجها ٢٠ ضعفاً وانتاج هولندا عشرة اضعاف

وحاجة ايطاليا في السنة العادية الى نحو ٢٠ مليون طن من الفحم في السنة فانتاجها لا يغطي من حاجتها اكثر من ٥ في المائة

والذي يزيد من ذلك انها كانت تستورد ما تحتاج اليه من بريطانيا والمانيا وبولونيا ، بحراً . فاذا أوصد البحر في وجهها كما اوصد الآن ، فيجب ان يكون النقل بسكك الحديد . والسكك الحديد في اوربا لا بد ان تكون في حالة حرب ، مرهقة بنقل اشياء كثيرة ، علاوة على تعرضها للغرق والتعطيل بفعل قنابل الطائرات . فلا يبقى امام ايطاليا في حالة كهذه الا ان تعاني الفاقة في مادة حيوية كهذه المادة

أما إنتاج ايطاليا من الحديد الصب في سنة ١٩٣٨ فبلغ ٥ في المائة من انتاج المانيا ، و١٣ في المائة من انتاج بريطانيا . و٤٠ في المائة من انتاج فرنسا . وكانت كل من بلجيكا وبولونيا حتى لكسمبرج ، تتفوق فيه . وانتاج الصلب يماشي ما تقدم . فانتاجها منهُ في سنة ١٩٣٨ بلغ ١٠ في المئة من انتاج المانيا و١٢ في المئة من انتاج روسيا . و٢٢ في المئة من انتاج بريطانيا . فمجموع ما تنتجه ايطاليا من الحديد الصب والصلب لا يغطي الا ثلث ما تحتاج اليه منهما على الكثير ومعظم شؤون النقل وعتاده على الفحم ، يصدق بوجه عام على الحديد والصلب . فالأساس الذي تقوم عليه الصناعات الثقيلة فيها ، واه لا ريب في ذلك

***

أما فيما يتعلق بالركن الثاني ، وهو موارد الخامات الصناعية والحربية ، فليست ايطاليا أحسن حالاً منها فيما يتعلق بالفحم والحديد والصلب . فهي تحتاج الى استيراد كل معظم ما تستهلكه من بترول ومشتقاته ، ونحاس ، ومعادن لخلائط الصلب اللازمة لصناعة حربية وكذلك خامات صناعة المنسوجات كالصوف والقطن . ومعظم هذا الذي كانت تستورده كان مجيئها هي الأكثر عن طريق قناة السويس ، او جبل طارق ، وهو الأكثر او من البحر الاسود عن طريق الدردنيل وسائر بلدان البحر المتوسط . ومعظم هذا قد قطع الآن بفعل الحصر البحري . ولا ريب في ان الحكومة عمدت في خلال النيف الأشهر الأولى من هذه الحرب ، عندما التزمت موقف دولة غير محاربة ، الى تخزين ما نالته من الخامات الصناعية والحربية . ولكن كل مخزون الى النفاد ، ولا سيما ان قدرتها على التخزين كانت محدودة بقلة ما تملكه

من النقد الأجنبي لتوفية الثمن. وتعويض معظم مايعوزها مما تقطع عنها متعذر او صعب، لأن منها مواد لاتوجد في أراضي جوارها على بر القارة الأوربية، كالملاط ومعظم معادن الاخلاط، ولأن نقله بسكك الحديد خاضع لما سبق القول فيه من ارهاق السكك الحديدية وتعرضها للعرقلة بفعل ضرب القاذفات

اما الركن الثالث وهو الصناعات الهندسية، فالايطاليون يجيدون فيها، ومصانعهم تصنع السفن التجارية والحربية والسيارات والطائرات وقاطرات السكك الحديد ومركباتها. ولكن انتاج هذه الصناعات محدود في حالة الحرب بحدود دقيقة الحاجات اللازمة وقد تقدم ذكرها

ويضاف الى كل ما تقدم ان تفرق البلدان التي يجب ان تدافع عنها وراء البحار يخل كل صلة بالجاليات التي تحميها، او التي تنوي ان تستعملها قواعد للهجوم على غيرها، وتبعثة بتدريبها على سيادة البحار، لان النقل الجوي وحده لا يكفي الا لنقل عدد محدود من الرجال، ولا بد ان يقترن على نقل الاسلحة الخفيفة. اما مقادير الزاد واللقاء التي تحتاج اليها الاسلحة المختلفة من مدافع ضخمة ودبابات وما اشبه، فنقلها متعذر ان لم يكن على اطلاق القول، فهو متعذر — او محفوف بالمشاق — على ايطاليا

ومن هذا نفهم الموقف الحرج الذي وجدت فيه جيوش الدوتشي بكانيا بعد نشوب الحرب الايطالية اليونانية، وإباحة كريت قاعدة لسفن الحربية والطائرات البريطانية، واستقلاله حكم [illegible] قواتها بجزائر دد فكي بعض القشير بهذا. وبين ما كذلك مبرزي على الجيش الثاني جيوش اوبني عن الهجوم الذي مهد له بقذفه الى سيدي براني. واخر الهجوم على الحلفاء بعد الموقع استعد بدن جيداً عتاداً وثقة كبيرة في خصمه وحربه، معتقداً [illegible] ايطالية في الحبشة والاريترة، وخذلانها رغم بقاء جانب كبير من سلاح [illegible] ان هذه البلاد بايطاليا مقصورة الا عن طريق الجو

ورجو الحرب الفنيون يدركون قيمة هذه الحقائق في كل ضرب حربي، فالشعب بحسها يدافع عن قضيته وعقيدته، ولذلك كان الشعب وشيكاً على جيش ثم الحرب [illegible] الجزيرة [illegible] وواقفة في بعض جوانبها [illegible] وتبني على التفكير النفسي، ومجال الخطأ في هذه النوحي واسع. ومرجعها تقع اشباه شيء هو حادث على إسناد جبال الالب، وفي رمال صحراء مصر الغربية، وفي دوائر الجيش والاسطول العليا ومجالس الشعب ونفوس الناس (١)

(١) ملخص حديث لاسكي لمراسل مجرر المقتطف أذيع من محطة القاهرة بعد معركة سيدي براني، وليراجع القارىء فصلا قصيراً له في المقتطف لشهر يناير ١٩٣٩ ص ٣٣ وعنوانه «ضمانات الصناعة والحرب وأغراضها»

ما وراء اسباب الحرب

وما بعد نتائجها

لنقولا الحداد

وراء الاحداث الظاهرة التي نراها عوامل طبيعية سببية قد لا نراها واذا استدل عليها اذا تتبعنا سلسلة المسببات والاسباب . مثلاً نرى المطر ينهمل بعد انخفاض درجة الحرارة اذا كان البارومتر ينبئنا بكثافة الجو . إلاَّ أنَّ هناك سبباً اقصى وهو اقتراب الارض في فلكها الى نقطة الذنب حيث تكون أبعد عن الشمس . فالحرارة الواقعة من الشمس عليها تكون اقل فيبرد الهواء ويسقط بخار الماء الذي فيه مطراً ".

والاعتقاد الشائع بناء على الظواهر الاجتماعية ان بذرة الحرب الحالية زُرعت في معاهدة ڤرساي . وهذا كان مبرر كثير لم أن يهيج غضب الشعب الالماني بضرب على وتر ڤرساي التي أفضت اليها الحرب السابقة . فمعاهدة ڤرساي كانت نتيجة الحرب السابقة التي أثارتها المانيا نفسها وانتهت فيها فوقعت بتلك المعاهدة . فليس لمتدبر ان يتذمَّر منها

دعنا من هذا الجدال . سلَّمنا أن معاهدة ڤرساي سببت هذه الحرب الحاضرة . فما الذي سبَّب الحرب السابقة التي افضت الى معاهدة ڤرساي ؟ قد نرد سببها الى حرب البلقان التي انتهت فيها فرنسا فأملى بسمرك حكمه عليها في ڤرساي نفسها . ثم ما الذي سبب حرب البلقان ؟ اذا تمادينا في التعليلات التاريخية فلا نقف عند سبب نهائي سبب الاسباب . فالحروب المتوالية بل نجد سلسلة او سلاسل من الاسباب لا اول لها حتى ولا مقتل هابيل

كل حرب مصحوبة بتطورات اجتماعية مهمة

اذا راجعت تواريخ الحروب منذ القدم الى الآن وقفت في طبيعة كل حرب على تأثيرها وجدتها مصحوبة بتطورات اجتماعية أو سياسية منجدة أو مستجدة . والتعليم الأهلي المدارس والقوانين الدولية ايضاً انما هي صور هذه التطورات . كان نظام الشيخة عند بني اسرائيل بعد توطنهم في ارض الميعاد نتيجة حروبهم مع الكنعانيين . فقد رأوا ان نجاحهم في حروبهم وفي حياتهم الاجتماعية لا يكون الاَّ بنظام حكم الشورى فاتخذوه

ونظام الاقطاع لم ينشأ ويعم اوربا الاَّ باستمرار الحروب بين ملوكها تنازعاً بسط السيادة .

ولم يكن اولئك الملوك ليحصلوا على جنود الا بواسطة قوّاد امراء حرب. فكان الملوك يُقطعون هؤلاء الامراء القواد الامارات لكي يجمع هؤلاء لهم الجنود ويجيوا لهم الاتاوات الإنفاق على الحرب. وما انقطع دابر الاقطاع الا لما نشأت طبقة الصناع واهل الفنون والتجار. فقلّ الزراع في املاك الامراء واضطرّ هؤلاء ان يبيعوا املاكهم وطفقت ثروة الاراضي تتوزع على العاملين رويداً. ثم شرع لنظام الاحكام الفردية المطلقة الاستبدادية يتوارى، ونشق نظام الحكم الشعبي (الديموقراطي) يقوم مقامه تدريجياً. جميع هذه التطورات الاجتماعية كانت مصحوبة بحروب طاحنة. وما انتهت حرب الا بتطور اجتماعي جديد كانت تهيؤه «روح الاجتماع» وتحرض عوامله على اثارة الحرب لكي تهدم للنظام القديم وتبني على انقاضه النظام الجديد.

وتعني بروح الاجتماع اختيار عقول الجمهور بفكرة واحدة أو عقيدة واحدة أو مبدأ سياسي أو إقتصادي واحد كفكرة الديموقراطية مثلاً. وشيوع فكرة ما أو عقيدة ما أو مبدأ ما في العصور يحدث بعوامل مختلفة لا محل لتفصيلها هنا. لنوجه انظار القراء اليوم الى كتابنا عن الحرب.

فكلما تغيرت العوامل الاجتماعية عما يستجد من مبتكرات العقل البشري التي تتغير بها شعور الحياة الاجتماعية والفردية كاختراعات ونحوها حدث تطور جديد في النظم الاجتماعية. ولا يمكن ان يحدث هذا التطور الا بهدم نظام قديم وبناء نظام جديد. والحرب هي معول الهدم.

ذلك لأن النظام تقليد (Tradition) اجتماعي. فالقوة التي للتقليد القديم الحسن بالتقليد القديم تصادمها حتماً. لأن التقليد القديم عتيد لا يسلم بجديد بسهولة بل يقاومه بشدة وشدة الى أن ينتصر أحدهما. ومعنى هذا أن للتقليد القديم انصاراً يدافعون عنه. ويخسره هم انصار النظام الجديد. فيحاربون هدم القديم. ويقع القتال بين الفريقين. فإن انتصر الجديد هدموا القديم وبنوا جديداً على انقاضه. والا بقي القديم حتى آخر الزمان إن لم ينتصر الجديد ويستقووا أو يستأنفوا القتال.

مثال ذلك الديموقراطية قامت خصماً للحكم الفردي المطلق منذ عهد [illegible] كان انصارها [illegible] واستقووا. وخلاصة القول ان المجتمع في حالة تطوره حين يتهيأ لنظام جديد بفعل «روح الاجتماع» هذه التي نحن بصددها. والحرب انما هي مخاض المجتمع بالنظام الجديد.

الحرب الماضية تمخضت بجامعة الأمم لأن العوامل الاجتماعية التي سبقتها كانت تمد الأفكار لهذه الجامعة كضمان للسلام. وقد سبقتها محكمة العدل في لاهاي، ومؤتمرات سلام سابقة. وكانت جميع هذه نظماً غير ناضجة فما نجحت. وتمخضت حرب البور باتحاد مستعمرات جنوب افريقيا. وحرب تحرير اميركا الشمالية تمخضت باتحاد الثلاث عشرة ولاية الأولى التي كانت

في ذلك الزمن تحت السيطرة الانكليزية . فلننظر في ضوء هذا الشرح فيما هو السبب الحقيقي الكواري وراء الأسباب الظاهرة لهذه الحرب . وفيما هو النظام الجديد الذي تتمخض به

قبل السبب « نريد ان نعيش »

المحرض الطبيعي لاي حرب هو الحرص على حاجيات الحياة . ما الحرب الا تنازع البقاء (تنازع البقاء) . البواعث الأولى لاية حرب انما هي اقتصادية اولا . هتلر يقول « نريد مستعمرات لكي نعيش » . موسوليني يقول « بلادنا ضاقت بنا نريد التوسع (الفتح أو الاستعمار) لكي نعيش » . الدعوى صادقة الى حدّ ما وكل منهما يذرع بها الى كرسي الحكم لا الى رفاهة قومه : لأن قومه لم يتزلهوا حتى الآن ، بل هم في ضنك من الجهاد في العمل ومن شظف العيش . ضراخ العمال العاطلين قبل الحرب الماضية وبعدها « نحن جياع نريد عملاً لكي نأكل » يؤيد صدق تلك الدعوى ظاهراً او الى حدّ ما

كان هتلر في خطبه النارية يستثير العامة بصراخه : « أن معاهدة ڤرساي التي اختلست من المانيا مستعمراتها كانت سبب بطالة العمال » وكان يلم حوله جمهور الغوغاء بوعود يبذلها لهم بأنه سيسترد المستعمرات ويبعث الأعمال للعاطلين . ولما نجح في الوصول الى كرسي الحكم صار يحي الرأسماليين أيضاً بتبشيرهم بأنه لن يمس أموالهم . وهكذا خدع العمال وتملق أصحاب الاموال باستخدام الفريقين لسلاح

بعضا من شعوذة هتلر التي استكمل بها من النفس على عنق أمته وتبحث في السبب الحقيقي لصراخ الغوغاء الجائعين في طلب الرزق . أحقيق أن بلاده ضاقت بهم وشحّ الرزق فيها

هل كانت المانيا بخيلة فقيرة ؟ هل كانت ايطاليا في فاقة حقيقة ؟ حتى لا يبقى فيهما رزق لفريق العمال ؟ ؟ إذن ، من أين جاءت تلك المعدات الحربية الطائلة ؟ أليست آلاف دبابة كل منها قلعة متحركة ، ملايين المدافع الضخمة ، ملايين ملايين القنابل ، مصنوعة ، مائة وثمانون غواصة ، ٤٠٠ سفينة طيارة ، ثمانية الى عشرة ملايين جندي مدججين بسلاح فاتك من الملحقات التي لا تحصى اللازمة لهذه المعدات من مؤونة وملابس وممارات وحرس وو . الخ أليست كل هذه ثروة عظيمة ؟ أم كانت تكفي العمال عاطلين وغير عاطلين خبزاً رخيصاً وزيادة ثم قطعاً بخلات الحياة كل هذه العشرين سنة التي مضت بعد الحرب السابقة ؟ أما كانت تكفي العامة أن يعيشوا في يسر ورخوحة من العيش بجهاد أقل وفي هناءة أعظم ؟؟؟

بل ، وانما انفقت جهود العمال في سني هتلر النازية في الاستعدادات الحربية الطائلة لا لكي تخلص المانيا (وايطاليا شاملة) من الفقر والجوع — فما هي جائعة — بل لكي يتهدّم النظام

السياسي الاجتماعي في أوروبا خاصة توطئة لنظام آخر أصح ، لأن النظام الحالي لم يعد موافقاً لتقدم الصناعي العظيم ولا مجارياً له

سر القضاء الاجتماعي

ليس من يجهل قط ان النظام الاجتماعي الحالي كان سبب بطالة العمال وكان سبب الأزمات الاقتصادية المتوالية ، وليس من يجهل ان النظام الحالي كان سبب تقلقل السلام وسبب تعاقب الحروب حيناً بعد آخر . فهذا النظام هو نكبة البشرية الآن . وهذا النظام المريض خوّل لشخص مفتون مثل هتلر أن يرتقي الى سدة الحكم في أمة عاتية مثله لا يفقهون أي خطأ يرتكبون .

إنما هنالك وراء هذه الحوادث الاضطرابية التي قوضت بناء الأمن والسلام سر القضاء الاجتماعي ، التي سخرت هتلر وأعوانه وتابعيه لتهديم هذا النظام القديم بعد [illegible] المجتمع الالماني ولكن لن يخولهم ان يبنوا نظامهم الخاص على انقاضه . فهو [illegible] لنظام [illegible] آخر يفصل ذلك الشذوذ منه

كيف كان ذلك القضاء ؟

أصبحت الرأسمالية التي تابزت الحياة السلمية [illegible] ترتجي شراً [illegible] تذمر طبقة العمال في إبان بطالتهم كما ان هذه البطالة [illegible] الرأسمالية [illegible] في المصارف من غير جدوى

إذن الفتح والاستعمار هما السبيل [illegible] ولا بد من الحرب [illegible] تقضي للرأسماليين وطرين في وقت واحد : أولاً تشغل العمال [illegible] في التجنيد والتسليح فيكفون عن تهديد الرأسمالية . وكلا التجنيد والتسليح يحتاجان [illegible] يجدون المصرف الذي يثمرون فيه أموالهم . ومعامل التسليح [illegible] العمال [illegible] عن التذمر والتفكير [illegible]

التحول الثوري في نظامنا

كان توازن النظام الاقتصادي قد اختل واضطرب أيما اضطراب بسبب تدفق الآلات الميكانيكية الى ساحة العمل إذ استخدمها الماليون وفصلوا الجانب الأعظم من العاملين الى الوراء فتدفق الانتاج واستغل الماليون ، ولم يفضل منه للعاملين شيء بعد الرمق

ثم ان النظام الاستغلالي قسم خوّل ذوي الأموال الوافرة احتكار الاستغلال فقذفوا الى ورائهم المتمولين الصغار، وهكذا أصبحت التجارة نصيب كبار المالين. وخالها نصيب المترزقين والعمال. فهبطت كفة الميزان بالمالين وارتفعت بالعاملين. اختلّ التوازن الاقتصادي. وكان اختلاله سبباً لاختلال الأمن وتقلقل السلام

ليس هذا فقط. بل هناك نظام آخر أخرق أيضاً عاون النظام الاقتصادي (الرأسمالي) على قلقلة السلام، هو النظام السياسي المتداعي — متداع لأن التوازن السياسي القديم الذي كان يحميه من السقوط الى أجل قصير قد زال. زال بسبب زوال التوازن الاقتصادي نفسه. اختلّ ذلك التوازن السياسي في معاهدة فرساي

وكان من نتائج اختلال هذا التوازن أن التعصب للوطنية اشتدّ واحتدم. وتقلصت به الكلمة «الأممية» التي يسميها الأجانب انترناشيونالزم Internationalism بعد ان أوشكت ان يتجمع بها الأمم، تتكتّل. اشتدّ الحقد والحقد بين الأمم. أقيمت الحواجز المختلفة بين الممالك. تعذر الاختلاط بين الشعوب على الرغم من توافر وسائل المواصلات. تعرقلت المبادلات التجارية. تعرقلت بسببها وسائل الانتاج. تعقدت المعاملات الداخلية والخارجية. توانت الطاقات الاقتصادية. علا النداء للقتال في سبيل الاستعمار. اشتدّت المخاوف بين الدول. أصبح الأمن الدولي خيالاً لا أنواماً له. أصبحت العلائق الدولية تهدد العالم كله بحرب مدمرة لمعالم المدنية. تزايدت الضرائب لاجل نفقات التسليح — حدثت الحرب التي كانت الدول تتخوف من حدوثها

لماذا؟

لان النظام السياسي الحالي كالنظام الاقتصادي أصبح مزعزعاً لانه قائم على اكتاف البشر الذين يعانون من عدم ملاحيته بل من عسفه. فهم يبتغون ان ينفضوه عن عواتقهم. وهذا الاتقاض هو الحرب التي تدكّ الآن الى الحضيض

روح الاجتماع المتقلص

اذن هذه الحرب لم يثرها بالحقيقة لا هتلر ولا موسوليني. بل هم أحقر من ان يستطيعوا اثارتها. وانما هناك بدخنية أثارتها من وراء الستار هي بدّ «روح الاجتماع» التي لم تعد تطيق هذا النظام الاجتماعي الخانق لها. فهي تدمّر هذا النظام الذي لم يعد مساقاً للتقدم الاجتماعي العام — التقدم الصناعي والاقتصادي والاداري. تدمّره لكي تمهد الأساس لنظام آخر جديد يُجاري الميول الانسانية الجديدة وتطلق فيه روح الاجتماع نفسها

فما هو هذا النظام الجديد ؟

اما الجانب الاقتصادي منهُ فأصبح متداولاً على ألسنة الطبقتين : الطبقة المسماة بالوسطى (البرجوازي) وطبقة العمال . وهم يتصايحون به من قبل الحرب السابقة الى الآن . وقد شرعت بعض الدول تتقلده منذ شروعها بالتأهب للحرب . فالمانيا وضعت جميع مرافق الامة من مصانع ومعامل ومشروعات صناعية تحت سلطة الحكومة . وهذه تتحكم بدخلها وخرجها وتتحكم بمنتجاتها على الاستعدادات الحربية . وايطاليا على غرارها

ولما احتدت انكلترا ان خطر يجدُّ ولا يهزل فعلت كذلك . فسيطرت الحكومة بموافقة البرلمان على جميع المشروعات الانتاجية في البلاد على اختلاف انواعها لكي تستغلها لحساب فظائع الحرب . هذه الثلاث دول كانت مقام مة النظام الاشتراكي ، والآن تلتجأ اليه بعينه لتستعين به في الحرب . وحجتها في هذا الالتجاء ان الأمة كلها واحدة متضامنة الأجزاء أو هي شخص واحد Organism متضامن الأعضاء يجب ان تشترك جميع ذراته في العمل لحياته وبقائه — والدفاع الحربي هو نوع من العمل

فشكراً للحرب التي غصبت هذه الحكومات على تقلد النظام الاشتراكي . وشكراً وأشكر ايضاً ليس غرض روح الاجتماع من الاشتراكية تبديد مجهودات الأمة في معمعات القتال . بينما ان يشترك جميع اجزاء الامة في الانتاج وفي التمتع بثمرات هذا الانتاج على السواء . ولئن استمرَّ هذا النظام في هذه الدول حتى بعد الحرب هذا الغرض كان من شر الحرب التي هي خير

الاتحاد الدولي

نعود الى الجانب الاداري من النظام الجديد الذي ترمي اليه روح الاجتماع وهو التنظيم السياسي . فهو انضمام الدول في اتحاد واحد على كانضمام الولايات المتحدة الاميركية والولايات السويسرية وولايات جنوب افريقيا وولايات كندا

هذا مشروع عظيم الشأن . ولا ريب في ان روح الاجتماع ترمي اليه من قبل الحرب بمدة . وكانت تلك الحرب تهيداً له فتمخضت به وولدت « جمعة الأمم » . ولكن ولدته ولدت سقطاً « جامعة أمم » لا « جامعة الأمم » ولذلك لم يطل عهد السلام على الارض . فثبت حرب الغاية وهي تتمخض باتحاد دولي جديد . فان ولدته سليماً دام السلام على الارض ما دام الوليد سليماً لا يمرض . وان ولد سقطاً كما ولد أخوه قبله بقي السلام مفقوداً الى أن تتمخض به الهيئة الاجتماعية في حرب أخرى باتحاد دولي سليم

شرع هذا الاتحاد الدولي يتكوَّن في ضمير المجتمع منذ زمان طويل . وقد تكوَّن جنان

جنينه في القرن الماضي . وفي هذا القرن اتضحت صورته في فكر المجتمع

تألفت جمعيات له بعد الحرب الماضية في أميركا واوربا منها ما يعرف باسم « جمعية التاريخ الجديد » ومنها باسم « حرية الانسان » . وفي هذا العام أو ما قبله تألفت جمعية باسم « اتحاد الملك » Federal Union . وهذا مقرّ في انكلترا بهذا العنوان :

Federal Union 44 Gordon Square London W. C. 1

لمن يشاء ان يستمد معلومات منها عن حركة هذا المشروع العظيم

وقد قرأت بضعة كتب في هذا الموضوع تبسط البراهين السديدة على امكان تحقيق هذا الاتحاد وتشرح كيفية انعقاده ، وتفند حجج أضداده الى ما هنالك مما يختص بالموضوع

وجميع الباحثين في الموضوع يدعون الى اتحاد جميع الدول على نمط الاتحاد الأميركي ، وان جمعية الفدراليين يونيون تدعو جميع الدول الديموقراطية الكبرى الى إنشاء هذا الاتحاد أولاً ثم يرحب الاتحاد بكل دولة تريد الانضمام اليه

وقد اقتبست الجمعية المذكورة له دستور الولايات المتحدة الأميركية نفسه بتعديل يقلل شكي يطابق اختلاف الدولية العامة

والقرّاء يذكرون جيداً ، والعهد قريب ، ان بريطانيا العظمى كانت على أهبة تكوين دولة هي وفرنسا معاً إذ أعلنت مشروع انضمام انكلترا وفرنسا في دولة واحدة ذات حكومة واحدة وبرلمان واحد اباح . ولكن فرنسا انهارت قبل ان يخرج هذا المشروع العظيم الى حيّز الوجود

والآن يتملق جميع العالم أجمع بمشروع تنظيم أوربا على نمط الاتحاد الفدرالي الأميركي ، ولكن نسوه جميعه وحقق العالم انه لا دول أوربا ولا العالم بأسره يثق بنظام يخرج من مصنع ساسة مهما يكن شكله

وحاصل ما تقدم ان سبب هذه الحرب ليس السبب المباشر الذي يتراءى لنا وهو العداء بين ألمانيا وبريطانيا من ناحية وانكلترا وفرنسا من ناحية أخرى . وانما هو تداعي النظام الاجتماعي القديم ، اقتصادياً وسياسياً ، وانشقاق روح الاجتماع الى نظام اتحادي جديد تشترك فيه جميع الامم على قدم المساواة ، والى نظام اقتصادي جديد يتمتع به جميع الافراد بنتاج العالم

فان تمخضت هذه الحرب بهذا النظام الجديد دام السلام على الارض ما دام النظام الجديد سليماً غير مريض ، والاّ كانت نهاية هذه الحرب هدنة قصيرة الأجل تعقبها حرب أخرى أفظع قد تتمخض بهذا النظام او لا تتمخض به ، أي انهُ لا يستتب السلام على الارض الاّ بقيام هذا النظام . ومن يعش يرَ